على تخوم العالمين
(١)
الصحراء[١]

بيتي على حدود الأبد -لو أنه كان للأبد حدود- وليس هو ببيتي وإن كنت ساكنه، وما أعرف لي شبر أرض في كل هذه الكرة، ولقد كانت لي قصور -ولكن في الآخرة!!- بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع، ووقفت معلقًا بين الحياتين، كما سكنت على تخوم العالمين!

ولغيري الأحراز والأملاك، ولكن من الصعب أن يتصور المرء أن (أرضًا) ملكه- ملكه كيف؟ يستطيع أن يزرعها إذا شاء، أو يبني فوقها إذا أحب، ولكن هذا ليس إلا نوعًا من الارتفاق، فأما أن يفهم العقل على وجه مقبول جلي أن هذه القطعة من الأرض -هذه القشرة المنتشرة على كتلة العالم، هذه الطبقة المتصلة بطبقات دونها- ملكه! فمما لا أصدقه ولا أدركه!! وتصور أن جبلًا من الجبال ملكك؟! جبلًا أشم شامخًا تتجاوب في مخارمه الأصداء، وتصارع كتلته الرازحة الرياح والأنواء - ملكك؟ لأصدق من ذلك وأقرب إلى الصواب فيه أن تقول: إنك أنت ملكه!

وإلى يميني الصحراء، وإلى يساري.. الصحراء، وفي كل ناحية يرتمي في فجاجها الطرف.. الصحراء، وفي الصدر.. لا أدري سوى أنه قواء!!

وفي كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأتريث على حفافيها برهة أشهد عبابها المتدفق

---

[١] عند هذه الصحراء تفترق مساكن الأحياء عن مقابر الموتى، وليس في الصحراء مقابر.

ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ويقذف بأشلاء غرقاه ثم يرتد ليئوب بسواهم، مطويين في أكفان أثباجه، محمولين على نعوش من مربد أمواجه. وبعد أن أقضي حق العين من التأمل والشهود، كأني موكل بعدّ الموتى وحساب البيود، أكر راجعًا إلى صحراواتي!

والقمر يضيئها كما يضيئكم أبناء الحياة! ويبسط على رمالها الصفراء نوره الفضي اللين اللألاء، ويضربها ساري الطل ضربة الروضة الفيحاء، وتوامض بلوراتها الأنجم الزهراء، وتطلع عليها الشمس وتغيب كل صباح ومساء، فما تميز (العناية) بين ممرعة وجدباء، وكل شيء عند الطبيعة ككل شيء سواء بسواء، ولو خلت منكم الدنيا لما أحسست فقدكم لا الأرضُ ولا السماء!

ويزحف الليل فأبرز إلى الصحراء، فيلفني الظلام في شملته، وتلطمني الريح وتدفعني وترد من خطاي كأنما تريد لتصدني عن هولها، وأعود كبعض ذراتها لا تراها العين، ولا يحسها ولا يحفل بها كون، فليت من تخدعهم الحياة وتنسيهم ضآلة أقدارهم يخرجون ليلة إلى الصحراء!

وماذا يعرف عن الليل من يسكن المدن ويعيش بين أضوائها الناسخة للظلمة، المضيعة لوقعها في النفس؟ هاهنا الليل الطاغي العاتي يا من ألفتم نعومة الحياة وطراوة العيش! فوقك السماء لا تراها ولكن تحس أنها دنت منك، وأسفّت إليك، فلو رفعت يدك لدفعتها، وتحتك الرمل وتغوص فيه قدمك وتريد أن تقتلعها منه ويأبى أن يدعها لك كأنما شوّقه طول الجدب إلى غرسٍ ولو كان إنسانًا!! ومن الريح في أذنيك الرعد مرسلًا دافقًا -هل رأيت (الدوّامة) في الماء؟ إليها تنحدر كل موجة، وصوبها يجري كل طاف، وفيها يغرق كل محمول على متن التيار- كذلك تكون أذناك للريح! فيهما ينصب صفيرها، وإليهما يجري مُزَمزمها، كأنما آضتا قطبًا شماليًّا

يجذب الرياح من الجهات الأربع! فيالفرحة الريح بطارق الصحراء!!

ويتجرد الإنسان فيها من اسمه، ولا يعود فلانًا ابن فلان -كائنًا من كان هذان الفلانان- بل بعضها وأهون ما فيها، وتسقط عن نفسه -كأوراق الشجر الذاوية- عواطف الغضب والألم والمراح والأمل واليأس والندم والأسف والطماح، وتسكن الشهوات الجامحة وتختفي النزعات المقلقة الطائشة ولا يبقى سوى طمأنينة وادعة، كصفحة الغدير المصقولة إذ يمسحها النسيم الواني، حتى والريح تعصف والظلمة مسحنككة.

ويحدّث نفسه إذا شاء -بل هو لا يسعه إلا أن يحدثها- ولا ينكر صوته ولا يستغرب أو يلحظ أنه تغير وأنه صار أشبه شيء بالصدى واثبًا عن جوانب الغار.

ويغنيها في الليلة القمراء...

وقد تزاحف الناس ببناهم فما عمروا منها فيما أرى خرابًا، ولا تحيفوا منها طرفًا أو ضيقوا لها رحابًا، هي أبدٌ صغير، وهل ينتقص من الأبد كر الأيام والشهور؟

والمرء ينفض فوقها غبار الحياة، وينضو عندها كل ثوب مستعار، وينسى أنه سعى وفاز أو خاب، وأن عليه أن يعود كرته إلى خوض قديم العباب.

ويا عجبًا لها! أهبط إلى ساحل العيش كل يوم وأعود وبي حاجة أن أميط عن نفسي ما علق بها من الأوحال، فأغشى الصحراء فأصفو من الأخلاط والأوشاب، وأرجع ولم يعلق حتى بثوبي التراب..

(٢)
صفحة سوداء من مذكراتي!

أنا الساعة في خلوة بنفسي -لا سمير إلا طيف الماضي- هذا أنيسي، يعمر لي فجاج الصحراء، ويكظها بالأشباح الجوفاء، ويحيطني بحاشية من الذكريات ليس لها انتهاء، ويُطرفني بأحاديث أيامي التي تقضت، وأحلامي التي انتسخت، وهماتي التي فترت، وبساتين آمالي التي ضوّحت...

رقدتُ على الرمال وجعلت عيني قيد هذه السماء المجلوة التي لا تعرف فنّ الإمطار، وكان القمر طالعًا ولكنه باهت كابي الضوء، كالذكرى، يغري بالوجوم ولا يُشيع في النفس حرارة، وهفا فوقي عصيفير حط على صخرة... هناك!.. هناك حيث لم أكن أجلس وحدي! .. وانطلق يغرد.

آه لو علمت عصيفيري أن صوتك كان يكون أصفى، وتغريدك أحلى وأشجى... ولكن عينها لن تفتح على هذه السماء، وسمعها لن يرده هذا الغناء!؟

والمرء في خلوته يكون أقرب إلى الجنون إذا ذهبت تعتبر سلوكه، كما يقول ماكسيم جوركي، لأنه يرسل نفسه على سجيتها حين يأمن عيون الرقباء، ويقول أو يفعل ما بدا له غير محتشم. وقد أذكرتني كلمة جوركي أني أحيانًا أجدني أنحني ساخرًا من شخص لا وجود له إلا في وهمي، أو أحك أنفي بأصبعي مكايدًا من أتخيل أني أعابثه، أو أخرج لساني لصورتي في المرآة!

وكأن العصفور أعداني فرحت أغني.. وما أنا بالمحتمل الصوت ولا هذا من عاداتي،

وإن في طبعي لاحتشامًا، كثيرًا ما ينغص عليَّ متعي ولذاذاتي. غير أني لم ألتفت إلى صوتي ولا أحسبني حتى سمعته، وإنما هو ذهول عراني فمضيت أرسل من الأصوات ما كان يطربني حين يصافح أذني كأنما أردت لأستدني به نائيًا.. فخيل إليَّ أني سامع وقع قدمين تدلفان نحوي... ولكن الطيف مرَّ بي ولم يتريث، واشتمل عليه ظلام الليل كما طوى صاحبه ظلام الأبد!

وا أسفي عليك! -لا بل عليَّ- لم يبق منك إلا طيفٌ يعتاد ذاكرتي! لا أثر على الرمال الخائنة التي كنا نمشي فوقها ونرقد عليها، ونملأ أكفنا منها، وندعُ ذراتها تتساقط خيوطًا من بين فروج أصابعنا! ولقد نسيتكِ النجوم التي كنت تحيينها وتشيرين إليها ببنانك وتعدينها ولم تستوحش خلو مكانك إلى جانبي تحت عيونها المتلاحمة -بل هي لم تذكرك حتى يقال نسيتك- والقمر الذي كنت تأنسين بطلعته وتخالسينه النظر من بين خصل شعرك الدجوجي المرخى على وجهك تحت ضوئه الفضي اللين، لا يزال يبتسم كالعهد به ابتسامة السخر والسهوم كأنه لم يفتقدك!

كلا! ما من شيء فيما أرى يحس افتقادك كأنك لم تحيي وجه هذه الطبيعة الخامدة الحس، الميتة المشاعر، التي تروعنا وهي لا تحفلنا، وتسبينا ولا تذكرنا، حتى أنا الباكي عليك تعروني رعدة كلما تصورت ما يصنع البلى بك! شفتاك الحساستان اللتان كانتا تستديران لتتلقيا قبلاتي، ماذا صارتا الآن؟ صديدًا سائلًا! وعيناك؟ أليستا الساعة كهفين بشعين أعالج أن أطرد من مخيلتي صورتهما؟ وأنفك الأشم المنسجم لعله في هذه اللحظة مرتع ديدان ومرعى حشرات! وأناملك الغضة التي كانت تضاغط كفي عن أرق عاطفة وأحناها؟ إيه ما أشنعها صورة وأهولها!! وماذا أنا الآن؟ حي من الأحياء لا يدري الناس أني مت منذ سنين وإني قبر متحرك كشمشون ملتون، أو جثة لم تجد من يدفنها أو صورة باهتة لما كنتهُ في حياتي، وما أعد

فيمن لا يزالون على قيد الحياة إلا لأني ينقصني أن تُكتب لي شهادة بالوفاة! ولقد كنتُ كما يتوهمني الناس الآن، حيًّا تتدفق الدماء الحارة في عروقي، فلما تأملت مصائر الخلق ركدت الدماء قليلًا وابتردتْ ومات منى شيء! ثم قضى ولداتا فأحسست ديبيب الفناء، وضحى ظلك فتساقطت أزهار الحياة بين يدي وذوت نوارات آمالي تحت عيني، وإذا كفي ملأى بميت الزهر مما قطفت قدمًا، فشاع فيَّ الموت علوًّا وسفلًا!!

وإني لأقضي أيامي على نحو ما، أروح وأجيء وأكتب وأتكلم وأضحك وآكل وأشرب، ولكني لا أرجو ولا أغضب، ولا أحزن ولا أطرب، ولا أرهب ولا أرغب لأني لست أحيا الآن!!

وإني لغارق في لجج هذه الخواطر وإذا بفتاة رودٍ تعدو إليَّ وتناديني باسمي، فأفقت ورُددت إلى الدنيا ولكن كما يفيق المغشي عليه: يتلفت في كل ناحية ويسأل أين هو؟ ويعجب لنفسه ولمن حوله، وبذهنه بعض الكلال، وعلى عينيه كالغشاوة، ثم اعتدلت فوق الرمل ونبهت حواسي ومداركي بجهد وقلت: «من عسى تكونين يا فتاتي؟».

قالت: «لقد ذهبت أملأ جرتي من بيتكم هذا (وأشارت إليه وكان بحيث يُرى) كعادتي كل ليلة بعد أن تنقطع الرجل[٢]، ألم ترني قبل الليلة؟».

قلت: نعم (ولكني لم أذكرها).

فمضت في كلامها وهي تلهث وتلقي عليَّ الأسئلة ولا تنتظر جوابها «إني كل ليلة

---

[٢] شركة الماء تحظر هذا.

أتسلل إلى البيت وجرتي تحت ملاءتي وأدفع الباب برفق. لماذا لا توصد بابك؟ ألا تخشى سارقًا؟ ولكن لو كنت توصده لتعذر عليَّ أحيانًا الدخول ولكني أخجل أن أزعجكم كل ليلة من أجل جرة ماء! وبعد أن أدخل وأضع جرتي في الحوض أتركها تمتلئ على مهل وأرود لحديقة، ولكني والله لم أقطف منها شيئًا، وإن كنت أحب ثمر الحناء؟ قد انتهرتني ليلة وأنا أتمشى تحسبني أريد أن أسرق، فخفت وبكيت في الطريق وقلت: كيف يسيء الظن بي؟ نعم كيف أسأت الظن بي؟» فقلت: «لم أكن أعرفك يا فتاتي فلا تغضبي وخدي ما شئت من الحديقة فما بها يستحق أن يضن به المرء» فانحنت إليَّ وأنا قاعد على الرمل ووضعت راحتيها على ركبتيها وأكبت بوجهها على وجهي وحدّقت في عيني وقالت بلهجة العاتب المحاسب: «كيف لم تكن تعرفني؟ ألستُ أحييك كلما دخلت ورأيتك جالسًا في ذلك الركن المظلم تحت الكرمة؟» فتناولت وجهها بين كفي وجذبته إليَّ في رفق وقبلتها إذ لم يكن ثمة بد من ذلك، وقلت: «لا تغضبي يا فتاتي، وإذا كنت تريدين ثمر الحناء فاجنيه كله، أو العنب فعناقيده لك، ولكن خبريني من دلك على مكاني؟» ونهضتُ. فعادت إلى التحدر وقالت: «من دلني؟ يا له من سؤال! كأن الدنيا كلها لا تعرف! ولقد وجدت بابك الليلة موصدًا فعلمت أنك خرجت إلى هنا فجئت أبحث عنك لتفتحه لي فإني أستحيي أن أقرعه».

قلت: «أحسنتِ، فتعالي إلى هذه الصخرة» قالت: «لماذا؟» قلت: «لتعدي لي النجوم!» قالت: «أوَهذا ممكن؟ إنها كثيرة جدًّا جدًّا!»، قلت: «نعم، ولكنك كلما عددت نجمًا وأشرت إليه بأصبعك اختفى واستسر حتى لا يبقى في السماء ولا الأرض إلا عيناك!».

قالت: «أصحيح هذا؟» وجعلت تثب وتصفق حتى لحلتها إحدى بنات الليل،

ومضينا إلى الصخرة، وجلست وأجلستها على ركبتي وطوقتها بذراعي وانطلقت هي تعد النجوم وأنا ألثم فاها كلما عدت واحدًا، وهي فرحة بلثماتي، تردها مضاعفة حارة وتهز رأسها وتنفض شعرها ثم تلقي بنفسها على ذراعي كرة أخرى وتستأنف العد، ووجهها إلى السماء، وشعرها المرسل متدلٍ إلى الأرض. ولبثنا كذلك لا أدري كم! ولكن الذي أدريه أن سنا حسنها طرد خفافيش خواطري التي كانت تمرح في ظلام رأسي!

obeikandl.com

(٣)
الغريرة

مـــرت عـــشاءً -بي- فتانـــة ... يـــا حـــسنها لـــو أن حـــسنًا يـــدومْ
والليـــل ســـاجٍ شـــاحب بـــدره ... كـــأنما أضـــناه طـــول الوجـــوم
فقلـــت: يـــا غـــادة أذكرتنـــي ... أحـــلام عـــيشٍ نـــسختها الهمـــوم
أمثـــل هـــذا الحـــسن لَّـــا يـــزل ... في عـــالم الـــشر القـــديم العمـــيم
ألم يـــزل (كوبيـــد) ذا صـــولة ... يرمـــي فيـــدمي كـــل قلـــب ســـليم
قالـــت: ومـــن كوبيـــد هـــذا الـــذي ... تـــذكره مقترنـــا بـــالكلوم؟
فقلـــت: هـــذا ولـــد مولـــع ... بـــصيد أكبـــاد الـــورى كـــالغريم!
فتمتمـــت عائـــذة باســـمه ... مـــن كـــل شـــيطان خبيـــث رجـــيم
يـــا بـــدر هـــل أبـــصرتها موهنًـــا ... بـــين ذراعـــي تعـــد النجـــوم؟
أم كنـــت في ليلـــة ذاك النعـــيم ... في شـــغل عنـــا بكحـــل الغيـــوم؟
يـــا بـــدر مـــا أفـــشاك رغـــم الوجـــوم!

في جـوارها

ولثمته...!

لم أكلمه، ولكن نظرتي

ساءلته: أين أمك؟

أين أمك؟

وهو يهذي لي، على عادته

مذ تولت، كل يوم

كل يوم

فانثنى يبسط من وجهي الغضون

ولعمري كيف ذاك؟

كيف ذاك؟

قلت لما مسحت وجهي يداه:

«أترى تملك حيلة؟

أي حيلة؟»

قال: «ما تعني بذا يا أبتاه؟»

obeikandl.com

قلت: «لا شيء أردته»

ولثمته..!

obeikandl.com

هاتف من جانب القبر

جمالك[٣] لا تأسف عليَّ ولا تأسى ... فإني تحت الأرض لا أحفل الحبسا

طواني الردى عن ناظريك فجأة ... وما كان ظني قط أن أسكن الرمسا

أراني الصبا شمسي بعيدًا مغيبها ... فسرعان ما ولَّى النهار وما أمسى؟

وكنت سرور العين والأنف والحشا ... فأصبحت أوذي العين والأنف والنفسا

ولا تتجشم لي الحفاظ فإنني ... وقد مت لا أوليك شكرًا ولا حسا

وأدخل إليك الشمس من كل كوة ... فما يتملى العيش من يحجب الشمسا

ستسليك عني كل زهراء ناهد ... وإن بقيت ذكراي تهمس بي همسا

فما أنت بالباكي عليَّ وإنما ... على فَقْدِ ما قد كنت طبت به نفسا

---

[٣] جمالك: أي صبرك.

رفيق

يلازمني في جيئتي وذهوبي ... رفيق من الماضي أليف شحوب
أقول له: «قدمت يا صاح فاحتجب» ... فيفتر عما «كان» ثغر حبيب
وما بجميل منه تنغيص حاضري ... بأن عليه منه عين رقيب
وقد كان قدما «حاضرًا» لا يمضه ... شريك ولا يشكو حساب حسيب

ما الفرق

توقلتُ طودًا لم تكن[٤] تتوقل ... وأصعدت فيه جاهدًا أتنقل
خلاءً قواءً جنَّه عبقريةٌ ... تعاوي به طورًا وطورًا تجلجل
من اللاء كم صالت وجالت بمثله ... عمالقة الدنيا الذين تحملوا[٥]
ولم تكن تهواه فكنت أروده ... وحيدًا ولا أشكو لا أتململ
فكيف غدا من بعدها جد موحش ... ولم تك تغشاه معي حين أفعل؟

---

[٤] لم تكن (هي).

[٥] تحملوا: أي ارتحلوا. وفي الأساطير: أن العمالقة كانوا يتقاذفون بالجبال.

في الفسطاط

أيا بلدة الفسطاط ما أنت بلدة ... ولكنما ذكري لمؤتنف الخفض

طواك قضاء الله في الأرض حقبة ... وأنشرك الإنسان نقضًا إلى نقض

خطوط وأنقاض كما جاهد الفتى ... ليحيي ذكري وهي تمعن في الغمض

خرائب من حولي وفي النفس مثلها ... وأهول منها ويل بعضي من بعضي

وكم خلت نفسي بعض أدراس نؤيها ... فأقررت حتى كان يفزعني نبضي

قضيت بها ليلًا طويلًا قصيره ... وهل تقصر الليلات من شدة المخض؟

فوا أسفًا لو هاهنا كنت لأنثني ... قصيرًا على الليل ذي الطول والعرض

لأوحشتني لما خلت منك رقعتي ... ولم تؤنسي ذا وحشة في حشا الأرض!

آأسفة للموت؟ أم أنت يا ترى ... أراحك مني الله ذو البسط والقبض؟

الأسى

بكيتــك بالــدمع الــسخين ولم أزل ... بقلبــي وإن جفــت مــآقيّ باكيًــا
ولست أرى الدنيا التي كنت روحها ... وريحانهــا تأســى عليــك ولا ليــا
وليس الأسى أن تذرف العين عبرة ... يــبرد مهواهــا القلــوب الــصواليا
ولكنــه عطــف ولهــف وحــسرة ... وتقليعــك الأحــلام حمــرًا داميًــا

صورتها

تأملتهــا حتــى تحــرك ســاكن ... من الثغر والعينين والرأس والصدر
أيصبح هــذا الحسن قبحًــا وجيفــة؟ ... بلى! ويسد الأنف من نتنه المزري!
ويمسي صديدًا كل ما كان من قوى ... ومــاء شــباب مــستحير ومــن ســحر
فيــا بــؤس للبوغــاء يعفــر وجههــا ... ويكحــل جفنيهــا ويلــصق بــالنحر!
وللــدود يقتــات الليــالي بحــسنها ... ويتركهــا كومًــا مــن الأعظــم النخــر!

شؤم الخيال

أرى رونق الحسناء في معية الصبا فيوضع بي شؤم الخيال ويُعنق[٦]

ويشهدنيها في التراب مرمّةً وقد عالها غول الحمام الموفق

---

[٦] الإيضاع والإعناق ضربان من السرعة. والمعنى: أني كلما رأيت حسناء في ريعان شبابها تخيلتها ميتة مدرجة في قبرها وقد صارت جيفة.

obeikandl.com

النجاح

قال أحد كتاب الروس -ولست أذكر اسمه لأرويه-: كان بمدينة كذا رجل ضعيف العقل، وكان الناس لا يمسكون عن الخوض في أمره والتحدث بتخلف ذهنه وغلظ عقله، فكربَهُ ذلك وساءه وأحب أن يغير رأي الناس فيه، فلم يزل يعمل فكره حتى هداه طول التفكير والتدبر إلى ما هو خليق أن يبلغه أمنيته ويحقق له غايته ورغبته، وذلك أنه صار كلما لقي واحدًا من معارفه وإخوانه يستخف رأيه ويستجهله، فإذا ذكر أمامه كتابًا ورأى أنه يستجيده قال له: هذا كتاب سخيف ليس فيه معنى ولا وراءه محصول، وإنك إذ تستحسنه وتستجيده لتدل برأيك فيه على تخلفك عن عصرك وتأخرك عنه.

وإذا امتدح أحد صورة على مسمع منه انبرى له بالتنقص والاغتماض قائلًا: ليس في هذه الصورة شيء يستجاد، وإنك بمدحك إياها وإكبارك لها لتثبت أنك متأخر عن عصرك، وهكذا ظل صاحبنا يستهجن كل ما يستحسنه الناس ويتهمهم بضعف العقل ويرميهم بالقصور والتخلف عن الزمن وبجهل ما عفي عليه من الآراء وأجدّ من الحقائق، فيمضون عنه وهم خجلون من سقاطهم وعثراتهم حتى أكبروا عقله وإن أفزعتهم وقاحته وراعتهم جرأته.

وبلغ من نجاح صاحبنا فيما قصد إليه أن صاحب جريدة استكتبه وسأله أن يوافيه بآرائه في الأدب والفنون والاجتماع! فلم يحد عن خطته التي رسمها لنفسه وهي تنقص كل عمل ورمي مستجيديه بالتخلف وعدم الاطلاع على أحدث الآراء التي أنتجها العصر! فصار قوة لا يملك إهمالها الكُتَّاب والمؤلفون والمصورون وسائر

الفنيين. وقد أراد واضع القصة أن يدل القارئ بها على سر من أسرار النجاح، ولم نرد نحن بإيرادها أن نذهب إلى أن الدعوى والتبجح لازمان في الحياة وأنهما وسيلة النجاح ولا وسيلة سواهما، ولكنا أردنا أن نقول: إن الحياء شيء حسن له فضله ومزيته، ولكنه، على ذلك، ثوب يحسن أن يخلعه المرء إذا شاء أن يفوز بحقه ويظفر بما هو أهل له. فقد تكون أقوى الناس استعدادًا وأكثرهم مواهب وملكات وأقدرهم على الاضطلاع بالأعباء والقيام بخطيرات الأمور وجلائل المساعي، ويحرمك الحياء أن تجني ثمرة تعبك وزهرة غرسك. وليس في الخجل معنى أن الحياة أو نتيجة إلا أن الناس يملئون بطونهم وأنت جائع، ويدخلون وأنت واقف بالباب، ويتقدمونك وأنت متردد!

واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التي تستحقها، لم يرفعك الناس إليها، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضًا ويزحزحونك إلى ما هو وراءها لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف مجالًا للعمل. فلا تصدق من يشيرون عليك بالترفق والوداعة وينصحون لك بالاستحياء، فإنه لا حياء في الحق ولا خجل من السعي لإحراز ما تستحقه من الأنصباء، وأحسبُ هؤلاء النصحاء أرادوا أن يستأثروا بالسبق فأشاروا عليك بالتقاعد! ويستبدوا بالفوز فزينوا لك الزهد والقناعة! ألست ترى أن الدول كيف تعلن عن فضائلها ومحاسن صفاتها ومميزاتها وهي قد أوتيت كل الرذائل والمقابح والخسائس؟ وكيف تدعي سمو العقل ونبل المقاصد وشرف المنازع وهي فائرة الصدور بالحقد والضغينة؟ وكيف تتظاهر بالزهد والعفة عما في يد الغير وهو شاغل شعاب مطامعها ومالئ جو آمالها؟ وكيف تزعم أنها تفيض عطفًا على أمم العالم وحبًّا للبشر وإيثارًا لخيره، وهي قد أكل قلبها الكره والاحتقار؟ وكيف تقاوم كل حركة رقي وهي تباهي بأنها مولد الآراء الجديدة؟ وكيف تفاخر بما تسنمته من تلاع

الرقي وأنجاد الرفعة وهي تجر رجليها وراء أصغر الشعوب؟ وكيف تتشدق بمبادئ الحق والعدل وهي تظلم الضعفاء وتسترقهم وتسلبهم حريتهم وتنتهك كل حرمة وتفجر في كل عهد وتنقض كل وعد؟ والناس يسمعون هذه الدعاوي الخلابة وتسحرهم فتنتها ويصدقونها ولا ينتبهون -ولو نبهتهم- إلى أن اليد لا تكترث لما يجري به اللسان!! وإذا كان هذا مبلغ التبجح بالباطل فماذا عسى ينبغي أن يكون مقدار الجرأة في الحق؟

لو كان في هذه الدنيا موازين لا تغل شعيرة تزن أقدار الناس والأمم وتقسم الحقوق بالعدل والقسطاس لما عادت بنا حاجة إلى النصح بالمغامرة واطّراح الحياء والخجل ونفض غبار التقاعد والخمول، ولكن ما تستحقه رهنٌ بتقديرك وحدك دون سواك. فمن أفحش الحمق أن تدع أمرك موكولًا لإنصاف خصمك -نقول خصمك لأن كل الناس وكل الأمم خصوم على الحقيقة- وما من أحد إلا وفوزك بشيء أو سبقك إليه، يحرمه إياه فهو مضطر إلى مغالطتك فيه وصرفك عنه ومغاليتك بالقوة عليه إذا لم تُجدِ معك الحيلة، وعلى قدر سعي المرء وما يبذله من الجهود يكون استحقاقه؛ لأن الحياة هي الحركة والجهاد لا النوم والتواكل، وما أحق من يقعد ويفتح فمه أن يملأه الزمان ترابًا!!